من ظواهر السياق الصوتي

عند علماء التجويد

دكتور
عبد العزيز أحمد علام

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد جاء علم التجويد القرآنى ترجمة صادقة للمنزلة الرفيعة التى احتلها القرآن الكريم فى قلوب المسلمين ، وسياجاً متيناً ضد اللحن ، والخطأ والتحريف ، وتقنيناً للأداء القرآنى المتوارث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولقد بذل علماء التجويد والقراءات الجهود العلمية التى دلت على عمق النظرة ، وأصالة الفكر ، والتى تتابعت فى جندية مخلصة أمينة عبر الأزمان والأجيال ، فكان لكل زمان علماؤه ، ومن كل جيل مفكروه ، ممن فتحوا أعينهم على العلوم العربية الأخرى ، فأفادوا منها ، وسخروها لخدمة أهدافهم النبيلة ..

ومن أهم العلوم التى أمدت علم التجويد بالمدد الطويل « علم الصوتيات » ، ذلك العلم الذى بدأ مبكرا ، ونما سريعا على أيدى الخليل وسيبويه وابن جنى وغيرهم .

لقد أقبل علماء التجويد على الفكر الصوتى الذى تكون لدى علماء العربية فألموا بمسائله ، واستوعبوا قضاياه ، وانتفعوا بنظرياته ، وكانوا فى ذلك أكثر حظا من علماء البلاغة الذين حاولوا الاستفادة من معطيات علم الصوتيات ، كما صنع ابن سنان الخفاجى فى كتابه « سر الفصاحة » ، والسكاكى فى كتابه « مفتاح العلوم » ، وكما صنع « الرافعى » حديثاً فى كتابه « إعجاز القرآن » .

وليس عجيبا أن نرى هذه المحاولات من علماء التجويد وعلماء البلاغة بالنسبة لعلم الصوتيات ، لأن علم الصوتيات نفسه اعتمد على الأداء القرآنى اعتماداً كبيراً ، فهو مدين إلى حد كبير لنظام التلاوة لكتاب الله عز وجل الذى لفت أنظارهم إلى طبيعة الأصوات ، وصفاتها ، وخصائصها ، وكيفية نطقها

فانكبوا على دراسة أصوات العربية من حيث المخارج والصفات ، ومن حيث التأثير والتأثر بينها ، وتوصلوا فى ذلك إلى نظريات صوتية قيمة لا تقل عما توصلت إليه الدراسات الصوتية الحديثة ، بل إنهم سبقوا إلى الكثير من هذه النظريات قبل أن يعرفها الغرب ويتوصل إليها ، واسمنا ميالغين إذا قلنا: إن علم الصوتيات الحديث مدين فى الكثير من قوانينه ونظرياته للفكر الصوتى عند العرب .

وهكذا ، فكما استفاد علم الصوتيات العربى من القرآن الكريم ، فقد استفاد علم التجويد القرآنى من علم الصوتيات ، وكأن هذه بضاعته ردها علماء التجويد إليه .

وعلى البحث العلمى أن يقوم بمهمة الكشف عن وجوه الإفادة التى أحرزها علم التجويد من علم الصوتيات ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فعلى البحث العلمى أن يقف على ما أضافه علماء التجويد من منهجية علمية فى البحث والدراسة ، ومن معالجة دقيقة لأصوات القرآن الكريم ، ومن استنباط القواعد التجويدية ، وتقنين التلاوة وفق الصورة المثلى التى ورثناها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعن صحابته البررة الكرام .

وهذا الواجب العلمى لا يستطيع بحث محدود - كهذا - القيام به على الوجه الأمثل، فهذا مما يحتاج إلى مؤلف خاص يتسع لتغطية هذه المهمة السامية التى يستحقها « علم التجويد »، والتى ينتظرها القارىء العربى، والشباب المسلم، فتكتمل المعرفة العلمية بما فى تراثنا التليد من فكر وأصالة ، وسبق وتقدم ، فتزداد الثقة بحضارة الإسلام والمسلمين، ويتحقق الاعتزاز والمض بالنواجذ على ماخلفه لنا السابقون من علم ومعرفة ، وأفكار ونظريات ، ويقل الانبهار بما يطالعنا به الغرب بين الحين والآخر من حضارة ومدنية ، كما يستطيع شبابنا الوقوف على حقيقة تاريخية هى : أن الكثير من الآراء العلمية قائم على تراثنا وحضارتنا . . عرف هؤلاء الغربيون قيمته ، وأدركوا أصالته ،

فأخذوه وطوروا فيه ، وألبسوه ثوبهم ، وصبغوه بصبغتهم، وهم الآن يحتلون به مصاف الدول المتقدمة فى عالمنا المعاصر ، ويقودون به ركب الحضارة العلمية فى مختلف العلوم وألوان المعرفة :

ومعرفة كهذه كفيلة بأن تولد فى نفوس شبابنا العزم الأكيد ، وتثير فيها الهمم القعيدة التى آن لها أن تنفض من عقالها ، وتنهض من كبوتها ، وتعود عودا حميدا إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وإلى أسلافنا وما خلفوه من معارف وعلوم ونهضة علمية أصيلة ، فتتفهمه وتتذوقه وتهضمه حتى تتمكن من التأثر به ، والسير على منواله ، فيتصل الحاضر بالماضى ، وتتأصل معالم المستقبل المشرق إن شاء الله رب العالمين .

ولما كان الفكر الصوتى لدى علماء التجويد بالصورة التى يحتاج فيها إلى إفراد مؤلف خاص ، فقد اقتصرنا فى هذا البحث على تناول جانب واحد من جوانب عدة فى علم التجويد ، ألا وهو : « السياق الصوتى » .

• • •

المقصود بالسياق الصوتى

السياق الصوتى مصطلح من المصطلحات الصوتية الهامة ، وذلك لما يعنيه من دراسة صوتية جديدة ، وما يدل عليه من منهجية علمية . وما يدخل تحته من ظواهر وقضايا هى من صميم علم الصوتيات ، ومن أخص خصوصياته :

وبيان ذلك : أن علم الصوتيات فى مراحله الأولى - وقبل عصور النهضة - كان يدور - غالبا - حول دراسة « الأصوات اللغوية » كوحدات تتكون منها المقاطع ، والكلمات ، وقد نجح فى هذه المهمة - وإن كانت محدودة إلى درجة كبيرة - نجاحاً كبيرا ، فبين الأصوات ، وحدد عددها ، ومخارجها ، وصفاتها ، وخصائصها ، ثم أتى على تصنيفها من كل زاوية ممكنة : من حيث المخرج ، ومن حيث الجهر والهمس ، ومن حيث الشدة والرخاوة - أو الغلق

والاحتكاك - ومن حيث التفخيم والترقيق ، ومن حيث الإطباق والانفتاح .. إلخ .

ولكن هذه الدراسة أصبحت اليوم بداية لدراسات علمية جديدة ، وذلك بعد أن خطت الدراسات الصوتية خطوات واسعة ، شاركت بها فى ركب الحضارة العلمية ، والتقدم التكنولوجى ، مشاركة فعالة : فقد قدمت خدماتها العلمية الدقيقة لعلوم الأمن والإجرام ، من أهمها : ما يسمى « البصمات الصوتية » التى تقابل « بصمات الأصابع » ... فكما أن الناس يتميزون فيما بينهم ببصمات الأصابع ، ولا يوجد اثنان من بنى البشر - منذ آدم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها - يتفقان فى بصمات أصابعهما ، كذلك لا يوجد اثنان من بنى الإنسان يتفقان فى الخصائص والمكونات الأساسية الصوتية ، وبذلك فقد أفادت علوم الأمن والإجرام من علم الصوتيات فوائد هامة فى مجال اختصاصاتها مما يقوم عليه « علم الجريمة » ، كذلك فقد توصلت الدراسات الصوتية العملية إلى اختراع أجهزة لاكتشاف الكذب ، وأجهزة اصناعة الكلام وتلفيقه ، وأجهزة لتحليل الصوت من أجل اكتشاف هذا التلفيق وهذه الصناعة .

كما قدمت الدراسات الصوتية الحديثة أيضاً خدماتها للهندسة ، وبخاصة « هندسة صوتيات الغرف » ، وكذلك للطب ، وبخاصة طب الحنجرة ، وطب الأسنان ، وكذلك لعلم الفيزياء ، وبخاصة هندسة التليفونات ... إلى آخر هذه الخدمات لمختلف ميادين العلم والمعرفة .

بعد هذا التقدم الذى أحرزته الدراسات الصوتية فى العصر الحديث تطور علم الصوتيات نفسه ، فلم تعد دراسته وقفاً على مستوى الوحدات الصوتية من حيث المخارج والصفات ، والتصنيف والتقسيم على أساس من ذلك ..

وإنما خطت الدراسة الصوتية إلى دراسة الأصوات عندما تنخرط فى سياق ، أو عندما تتجاور ، وهذه هى الدراسة الفعلية للأصوات ، لأنها تتوفر

على دراسة الأصوات ومراقبتها فى أثناء النطق والاستعمال اللغوى ، وهذا مايمثل الجدة فى الدراسة الصوتية ، أما مايمثل المنهجية العلمية فى الدراسات الحديثة ، فهو تحليل التركيب اللغوى صوتياً ، بمعنى رصد مايحدث الأصوات بتجاورها ، وتأثر بعضها بالبعض الآخر ، وهذا ما يسمى فى عرف البحث العلمى «بالمنهج الوصفى» ذلك الذى يقوم على توصيف الواقع النطقى وتقريره ، بعيداً عن الحدس ، والتخمين ، والتصور ، والتأمل مما هو أساس المنهج الفلسفى . وأما عن الظواهر والقضايا التى تدخل تحت « السياق الصوتى » فهى كثيرة متنوعة : كالتطويل ، والتقصير ، والحذف ، والدمج أو الإدغام ، أو التحول فى صفة الصوت ، أو فى مخرجه ، إلى غير ذلك مما سيأتى بيانه .

وهكذا ، فإن المقصود بالسياق الصوتى : دراسة الأصوات من خلال موقعها فى التركيب ، ورصد مايحدث لها من ظواهر ، تحت عملية التأثر والتأثير ، ذلك أن الأصوات تنشأ بينها علاقات ، كالعلاقات التى نراها بين بنى الإنسان : فالصوت القوى يحاول التأثير فى الصوت الضعيف ، وهذه الظاهرة واقعة فى العديد من اللغات البشرية اليوم ، كما هى واقعة فى أصوات اللغة العربية .

(ا) الصوامت (Consonants) :

= عن ذلك : صوت الراء : فإنه يتأثر بنوعية الحركة التى تأتى بعده من فتحة أو ضمة أو كسرة : فإذا جاء بعد الراء فتحة ، فإنها تفخم دائما ، مثل : رضى - رحمة - رأفة - رغيف - رطب . وكذلك إذا جاء بعدها ضمة ، فإنها تفخم ، مثل : رب - رطب - غير - عشرون ، أما إذا جاءت كسرة بعدها[1] فإنها ترقق دائما ، وفى جميع الأحوال ، مثل : رزقاً - رفعة - شرب - شربت من نهر النيل . إلى آخر أحكام الراء مما هو مفصل فى كتب القدماء .

(١) هذه العبارة أولى من قولنا « أما إذا جاءت الراء مكسورة .. » لأن محل الحركة بعد الحرف وليست قبله ، ولا معه ، كما أثبت ذلك ابن جنى فى كتابه « سر صناعة الإعراب » ، وكما وضحته الدراسات الصوتية الحديثة .

= ومن ذلك أيضاً : صوت « اللام » : فإنها إذا وقعت بعد فتحة، مثل: « شهد الله » ـ « وقال الله » فإنها تفخم ، وكذا إذا جاءت بعد ضمة ، مثل : « يقول الله » ـ « رسل الله » فإنها تفخم فى لفظ الجـــلالة فى جميع الأمثلة المذكورة . أما إذا سبقت بكسرة فإنها ترقق، مثل : « بالله » ـ « فى الله » إلى آخر ماهو معروف لأحكام اللام .

= ومن ذلك أن نرى صوت « التاء» إذا جاء بعده صوت « الطاء » : فإنها تتحول إلى طاء ، ومن ثم يقع الإدغام بينهما بعد هذا التماثل ، مثل : « قالت طائفة » فإنهما ينطقان « طاء مشددة » ، وذلك لأنهما وإن اتفقا مخرجاً إلا أن الطاء صوت مفخم ، فهو أقوى ، والتاء « صوت مرقق أوغير مفخم، فهو أضعف ، فأثر القوى فى الضعيف بالتفخيم ، وبدخول التفخيم فى « التاء » تتحول إلى « طاء » ، فينشأ مثلان أولهما ساكن ، والثانى متحرك ، فيقع الإدغام .

= ومن ذلك أيضاً : أن صوت « السين » عندما يقع بعده صوت من أصوات التفخيم كالطاء مثلا ، فإن « الطاء » تؤثر على « السين » ، فتكسبها صفة « التفخيم » ، ومن ثم فإن « السين » تنطق بصورة تقرب من صوت « الصاد » ، وذلك لأن النظير المفخم للسين إنما هو « الصاد » ، لأنهما متفقان صفة ومخرجاً إلا فى صفة واحدة هى صفة « التفخيم » ، فالصاد صوت مفخم والسين صوت غير مفخم ، وذلك كما فى : بسط ، قسط .. ومن هنا ـ وامتداداً لظاهرة التأثير والتأثر ـ يقع هذا فى اللهجة العامية المصرية ، فنرى « السين » فى كلمة « أسبوع » قد جاء بعدها صوت مجهور هو « الباء » ، وهنا تجاور صوتان أحدهما مهموس هو « السين » وثانيهما مجهور هو « الباء » ، والمجهور أقوى من المهموس ، فيؤثر القوى المجهور على الضعيف المهموس، فيدخل الجهر على « السين » ، فتنطق السين حينئذ بصورة أقرب إلى « صوت الزاى » هكذا فى اللهجة المصرية « أزبوع » ، لأن النظير المجهور للسين هو « الزاى » ، فهما صوتان

متفقان مخرجا وصفة إلا فى صفة واحدة هى «الجهر»، فالزاى صوت مجهور، والسين صوت مهموس، وهكذا يؤثر الصوت القوى المجهور (الباء) على الصوت الضعيف المهموس (السين).

(ب) الحركات (vowels):

وإذا كان للسياق الصوتى تأثيره على نوع معين من الأصوات هو: الأصوات الصامتة Consonants كما رأينا، وكما هو واقع فى أمر اللغة مما لا يتسع المقام له، فإن له تأثيره أيضاً على النوع الآخر من الأصـــوات الذى هو الحركات أو الأصوات الصائتة Vowels.

ولنأخذ على ذلك المثال الآتى: أصوات الحركة تنقسم فى عرف الدراسات الصوتية إلى قصيرة ويقابلها فى العربيـــة: الفتحة والضمة والكسرة، وإلى طويلة، وتقابل فى العربية حروف المد الثلاثة الألف والواو والياء.. والفرق بين النوعين ليس إلا فى الكمية: فالحركة القصيرة - تقريباً - تساوى نصف الحركة الطويلة، وبعبارة أخرى، فإن الحركة الطويلة تساوى حركتين قصيرتين..

ولكننا - تحت تأثير الجوار الصوتى أو السياق الصوتى - نرى الحركات الطويلة تتعرض لظاهرة «التقصير»، فتتحول - من حيث الكم الزمنى - إلى حركات قصيرة، وإن كان الحس اللغوى يدركها على أنها حركات طويلة، ومن ثم نرسم كتابياً برمز الحركات الطويلة، مثال ذلك:

«قالا الحق»، وقالوا الحق»، و«قولى الحق»، فإن نطق ألف المد - التى هى ألف الاثنين -، وواو المد - التى هى واو الجماعة -، وياء المد - التى هى ياء المخاطبة يتأثر بالدخول على همزة الوصل، فينقص كمها الزمنى إلى مقدار النصف تقريباً، وبذلك تتحول الحركات الطويلة - تحت تأثير الجوار أو السياق الصوتى - إلى حركات قصيرة... وهكذا تنشأ لدينا ظاهرة التقصير فى الحركات..

وإذا انتقلنا إلى جوار صوتى آخر للحركات، فإننا نجدها عندما تتلوها

الهمزة فى مثل : إشاء ـ جاء ، أو عندما يأتى بعدها حرف مشدد فى مثل : « دابة » و « حاد » ، يزاد فى كمها الزمنى أكثر من الوضع العادى فى نحو : « قال ـ صام » ، وذلك كما وضحه علماء الصوتيات ، وبخاصة ابن جنى ، ليتمكن الناطق العربى من نطق الهمزة التى تحتاج إلى جهد عضلى معين ، ومن نطق الحرف المشدد الذى يحتاج كذلك إلى جهد عضلى خاص .

ويعقد ابن جنى لذلك فصلا فى كتابه الخصائص يسميه « باب فى مطل الحروف »[1] فيقول :

« اعلم أن هذه الحروف (الألف . الواو ، الياء) أين وقعت ، وكيف وجدت ... فيها امتداد ولين نحو : قام . وسير به ، وحوت ... إلا أن الأماكن التى يطول فيها صوتها ، وتتمكن مدتها ثلاثة : وهى أن تقع بعدها الهمزة ، أو الحرف المشدد ، أو أن يوقف عليها عند التذكر ، فالهمزة نحو: كساء ، ورداء ، وخطيئة ورزيئة ، ومقروءة ومخبوءة ، وإنما تمكن المدفيهن مع الهمز ، أن الهمزة حرف نأى منشؤه ، وترامى مخرجه ، فإذا أنت نطقت بهذه الأحرف المصوتة قبله ، ثم تماديت بهن نحوه طال ، وشعن فى الصوت ، فوفين له ، وزدن فى بيانه ومكانه ، وليس كذلك إذا وقع بعدهن غيرها وغير المشدد ، ألا ترالك إذا قلت : كتاب ، وسعيد ، وعمود ... لم تجدهن لدنات ، ولا ناعمات ، ولا وافيات مستطيلات كما تجدهن كذلك إذا تلاهن الهمز أو الحرف المشدد[2] .

ثم ينتقل ابن جنى إلى بيان علة المطل لحروف المد إذا وقع بعدهن حرف مشدد فيقول : « وأما سبب ، نعمتهن ، ووفائهن ، وتماديهن إذا وقع المشدد بعدهن ، فلأنهن ـ كما ترى ـ سواكن ، وأول المثلين مع التشديد ساكن ، فيجفو عليهم أن يلتقى الساكنان حشوا فى كلامهم ، فحينئذ ما ينهضون

(١) ص ١٢٤ وما بعدها ، ج ٣ طبعة دار الكتب المصرية .

(٢) ابن جنى : الخصائص ج ٣ ، ص ١٢٤ ، ١٢٥ ، ط دار الكتب المصرية .

بالألف بقوة الاعتماد عليها ، فيجعلون طولها ووفاء الصوت بها عوضاً عما كان يجب لالتقاء الساكنين : من تحريكها إذا لم يجدوا عليه تطرقا ، ولا بالاستراحة إليه تعلقا ، وذلك نحو : شابة ودابة[1] » .

وعلى ذلك فنستطيع أن نرتب درجات الحركات حسب الكم الزمنى لها فى النطق مراعاة لنظام الفصحى ، ولتأثير السياق الصوتى ترتيباً تصاعديا هكذا :

١ ـ الحركات القصيرة (الفتحة ، والضمة ، والكسرة) ، كما فى : ضرب ـ كتب ـ شرب .

٢ ـ الحركات الطويلة إذا جاء بعدها ساكن ، ويكون فى الكلمة التى أولها همزة وصل ، كما فى : قالا الحق ، وقالوا الحق ، وقرلى الحق ، قالا اضرب قالوا اضرب ، قولى اضرب ..

والكم الزمنى فى هاتين الدرجتين واحد ، فهما تمثلان درجة واحدة .

٣ ـ الحركات الطويلة فى صورتها العادية ، كما فى : كتاب ، بعيد ، ثمود ..

٤ ـ الحركات الطويلة التى تجاورها الهمزة ، كما فى : جاء ـ شاء .

٥ ـ الحركات الطويلة التى يتلوها ويجاورها حرف مشدد ، كما فى : دابة ، شابة .. إلخ .

وعلماء التجويد قد التفتوا إلى السياق الصوتى فى أصوات القرآن الكريم وأفرغوا فيه جهدهم ، فدرسوه دراسة تقوم على التحليل ، والوصف والاستقراء ، ولم يقتصروا على نوع واحد من الأصوات ، وإنما درسوا الصوامت ، ودرسوا الحركات ، واستطاعوا أن يصوروا التغيرات التى تصيب الأصوات بسبب السياق أو الجوار الصوتى ، وصوروا أيضاً ـ فى هذا ـ على مجموعة هائلة من القواعد والأحكام التى نستطيع أن نسميها نحو

---

(١) المرجع السابق ص ١٢٦ .

السياق الصوتى، وقد تناولوها فى كتبهم، وحددوها على أساس « الصوت الذى أصابه التغيير » لا على أساس الظاهرة التى تتكرر مع أكثر من صوت ، وذلك كالإدغام. فقد ذكروها مرة مع « النون الساكنة والتنوين » ، ومرة مع « الميم الساكنة » ، وثالثة مع « المتماثلين والمتقاربين والمتجانسين » ، ومن ثم فقد سارت كتبهم على المنهج الذى يقضى بذكر كل الظواهر السياقية للصوت الواحد، فقالوا : أحكام النون الساكنة والتنوين ، وأحكام الميم الساكنة .. وهكذا .

ولكننا فى معالجتنا هذه نؤثر تناول « ظواهر السياق الصوتى » على أساس « الظاهرة » نفسها ، بحيث نتعقبها فى جميع صورها دفعة واحدة ، حتى تكتمل الصورة ، وتتضح الحقيقة العلمية متكاملة ، وذلك على النحو التالى :

أولا : ظاهرة الإدغام

سبق القول بأن علماء التجويد درسوا التغييرات الصوتية التى تنشأ بسبب الجوار الصوتى على مستوى الأصوات بنوعيها : الصوامت ، والحركات ، ومن ثم، فيحسن بنا أن نبتدىء بالظواهر التى تتصل بالصوامت، ثم نثنى بالتى تتصل بالحركات ، وأول الظواهر السياقية المتصلة بالصوامت الإدغام ،

يتحدث علماء التجويد عن ظاهرة الإدغام معرفين إياه ، كاشفين عن حقيقته ، وكيفيته ، وشروطه ، وأسبابه، وفائدته ، وموانعه ، مبينين الحروف التى تدغم ، والتى لاتدغم على النحو التالى :

تعريف الإدغام : لغة : الإدخال ، يقال : أدغمت اللجام فى فم الفرس إذا أدخلته فيه . واصطلاحاً : عبارة عن إدخال حرف فى مثله بحيث يصيران حرفاً واحدا مشددا ، يرتفع اللسان عند النطق بهما ارتفاعة واحدة وذلك مثل : « قد دخل » فإننا ندخل الدال الأولى فى الدال الثانية، فيصيران حرفا واحدا - فى قوة الاتصال والدمج لا من حيث العدد ، وإلا فهما من

الناحية الصرفية ، وكذا من الناحية الاشتقاقية حرفان ـ ويأخذان عند النطق صفة فسيولوجية ، هى أن يرتفع اللسان بهما ارتفاعة واحدة : وذلك أن اللسان بعد أن يأخذ الوضع المطلوب للدال الأولى فى المثال الذى معنا وهو الغلق مع ما يقابله من مقدم الحنك الأعلى ، يحاول الرجوع إلى وضع الراحة ، فيأتيه الأمر من المخ بالبقاء فى المكان نفسه ؛ لإحداث الغلق المطلوب للدال الثانية ، فيبقى حتى ينتهى زمن الغلق للدال المشددة ، وهذا هو التفسير الفسيولوجى لحقيقة الإدغام .

فائدة الإدغام : كشف القدماء عن فائدة الإدغام من « أنها تخفيف اللفظ لثقل عود اللسان إلى المخرج الأول أو مقاربه ، فاختار العرب الإدغام طلبا للخفة ؛ لأن النطق بذلك أسهـــل من الإظهار ، كما يشهد به الحس والمشاهدة »(١) .

وبالنظر فى هذا النص تتضح لنا عبقرية علماء التجويد فى تحليل ظاهرة الإدغام ، والفرق بينه وبين عملية الإظهار ، وهم فى هذا يلتقون مع الدراسات الصوتية الحديثة ، حينما تنتهج النهج الفسيولوجى فى تفسير الظواهر الصوتية ، ولننظر إلى عبارتهم « لثقل عود اللسان إلى المخرج الأول أو مقاربه » .. إن المعروف صوتياً عند نطق المتماثلين أو المتقاربين أن اللسان ، أو بعبارة أخرى ، أن أعضاء النطق لابد أن تقوم بتحركين مع كل صوت : تحرك أمامى لإحداث الغلق المطلوب ، وتحرك خلفى بعد انتهاء نطق الصوت إلى وضع الراحة ؛ وعلى ذلك : فالصوتان المتماثلان أو المتقاربان يتطلبان أربعة تحركات من وإلى مكان واحد أو مقاربه ، وفى ذلك ثقل فى النطق ، والوسيلة الوحيدة للتخلص من هذا الثقل هو الإدغام ذلك الذى يؤدى إلى اختصار هذه التحركات الأربعة إلى تحركين ، أو تحركين ونصف ، وذلك

(١) انظر : محمد مكى نصر : نهاية القول المفيد فى علم التجويد ـ ط الحلبى ١٣٤٩ هـ ص ١٠٤ .

لأن الأعضاء تأخذ تحركها المطلوب مع المثل الأول كاللام فى « لم يجعل له » ثم تحاول بعد إنهاء اللام الأولى الرجوع إلى وضع الراحة ، فيصل إليها الأمر من المخ بأن تبقى فى مكان الغلق لكى يتم نطق اللام الثانية ، فتبقى فى مكانها ، وبعد إنهاء نطق اللام الثانية تعود أعضاء النطق إلى وضع الراحة . وهكذا يتم الاقتصاد فى الجهد العضلى ، وتتحقق السهولة ، ويضيع الثقل . إنهم فى هذه المقولة يلتقون مع النظرة الحديثة لدى علماء الصوتيات التقاء كاملا .

شرط الإدغام : هو التقاء الصوتين : المدغم والمدغم فيه التقاء مباشراً بأن كان الأول ساكنا والثانى متحركا ، أى لم تفصل بينهما الحركة ، كما فى قوله تعالى : « اضرب بعصاك الحجر » ، أو كان الأول متحركا والثانى مثله ، بمعنى أن الحركة فصلت بينهما ، كما فى قوله تعالى : « نصيب برحمتنا من نشاء » فإن الباءين قد فصلت بينهما الضمة ، وعندما نطبق عليهما قاعدة الإدغام الكبير يتحولان - بعد إسقاط الضمة - إلى حرف مشدد .

أسبابه : لقد جمعها علماء التجويد فى ثلاثة :

الأول : التماثل : وهو أن يتحد الصوتان مخرجاً وصفة ، كالباءين فى المثالين السابقين ، وكالميمين فى قوله تعالى : « فى قلوبهم مرض » ...

الثانى : التجانس : وهو أن يتفق الصوتان مخرجاً ، ويختلفا صفة ، وذلك كالتاء والطاء فى قوله تعالى : « قالت طائفة » ، وكالدال والتاء فى قوله تعالى : « تكاد تميز » على قاعدة الإدغام الكبير مما سيأتى بيانه .

الثالث : التقارب : وهو أن يتقارب الصوتان مخرجاً أو صفة ، وذلك كالدال والسين فى قوله تعالى : « قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله » فهما متقاربان مخرجا ، وكالتاء والثاء فى قوله تعالى : « كذبت ثمود وعاد بالقارعة » فهما متقاربان فى الصفة ، لأنهما مهموسان ،

منفتحان ، مستفلان ، مرققان ، مصمتان ، غير أن التاء من الأصوات الشديدة ، والثاء من الأصوات الرخوة .

كيفية الإدغام : علاوة على الصورة السابقة من بيان كون الإدغام للخفة فى النطق ، وللاقتصاد فى الجهد العضلى ، يضيف علماء التجويد الأعمال التى يتطلبها الإدغام ، فيقولون : إن كان أول المدغمين ساكناً ، أى لم ينفصل بينهما حركة ، ففيه عمل واحد هو إدخال الساكن فى المتحرك ، أو الأول فى الثانى بحيث يصيران حرفاً واحداً مشددا .. أما إذا كان الأول متحركاً والثانى كذلك ، أى فصلت بينهما الحركة ، ففيه ـ حينئذ ـ عملان : الأول : تسكين الصوت الأول ـ أى حذف الحركة الفاصلة بينه وبين مثله ـ والعمل الثانى : الإدغام المعروف ، هذا إذا كان الصوتان متماثلين ، كما فى قوله تعالى « ولو شاء الله لذهب بسمعهم » فبعد إسقاط الفتحة تدغم الباء الأولى فى الباء الثانية ، ويلفظان حرفاً واحداً مشدداً .

أما إذا كان الصوتان متقاربين أو متجانسين وكان الأول ساكناً فعملان كذلك : قلب أى قلب المجانس والمقارب إلى مثله ، ثم إدغام ، كما فى قوله تعالى : « كذبت ثمود » فإن التاء تقلب ثاء ، ثم تدغم الثاء فى الثاء .

وإن كان أول المتقاربين أو المتجانسين متحركا ، فالأعمال التى يتطلبها الإدغام ثلاثة : (١) تسكين الأول وذلك بحذف الحركة . (٢) قلب الأول إلى مثل الثانى حتى يتحقق التماثل . (٣) إدغام الأول فى الثانى ، فيصيران صوتاً واحداً مشددا ، وذلك كالإدغام فى قوله تعالى : « وإذا النفوس زوجت » فإن إدغام المتجانسين وهما السين والزاى ، والأول متحرك ، يمر بالخطوات التالية : حذف الضمة بعد السين وهو ماسمى بتسكين الأول ، ثم قلب السين زايا ، ثم إدغام الزاى الأولى المنقلبة عن السين فى الزاى الثانية .

تقسيم الإدغام : جرى علماء التجويد على التمييز بين نوعين للإدغام :

الأول : الإدغام الصغير : وهو أن يكون المدغم ساكنا والمدغم فيه متحركاً ، ويقع بين المثلين ، مثل : « ربحت تجارتهم » ، وبين المتجانسين ، مثل : « وقد تبين لكم » ، وبين المتقاربين ، مثل : « قد سمع الله » .

حكم الإدغام الصغير : يجب تنفيذ الإدغام الصغير إذا تحققت ثلاثة شروط : ١ ـ ألا يكون أول المثلين هاء سكت ، فإن كان كذلك امتنع الإدغام، كما فى قوله تعالى : « ما أغنى عنى ماليه هلك عنى سلطانيه » .

٢ ـ ألا يكون الأول حرف مد ، مثل « آمنوا وعملوا » ، « ثم عموا وصموا » ، وذلك حتى لا يذهب المد .

وهنا ملاحظة : إن المثلية هنا عندما يكون الأول حرف مد ليست قائمة ؛ لأن الأول حرف مد أى من أنواع الحركات (Vowels) ، والثانى صوت صامت أى من النوع الآخر وهو الصوامت (Consonants) ، فالمثلية إذن منتفية ، اللهم إلا أنهما ـ وفق نظام الكتابة ـ متماثلان ، فكل منهما يكتب واواً ، ولما كانت الأبجدية العربية قد رمزت لواو المد، والواو المتحركة وكذا الساكنة فى مثل : (يقول ـ وعد ـ يوم) برمز واحد هو الواو المعروفة (و) ، فقد ظن علماء التجويد أن الواو الأولى متماثلة مع الثانية فى قوله تعالى : « قالوا وهم يتخافتون » ، وأن الياء الأولى متماثلة مع الياء الثانية فى قوله تعالى : « الذى يوسوس » ، مع أنهما ليسا كذلك ، ومن ثم فلا يمكن أن يقع بينهما الإدغام ، وهم على الرغم من ذلك لم يخطئوا الحكم ، فقالوا بمنع الإدغام ، إنما ألبس عليهم فيما يتصل بالشرط أو السبب .

٣ ـ الشرط الثالث لوجوب تنفيذ الإدغام الصغير : ألا يكون أول المتقاربين أو المتجانسين حرف حلق ، فإن كان كذلك امتنع الإدغام ، مثل : « فسبحه » فالحاء من أحرف الحلق ، ومثل ذلك « فاصفح عنهم » فلم تدغم

الحاء فى العين ؛ لأن الأول حرف حلق ، ومثل : « لانزغ قلوبنا » فقد امتنع إدغام الغين فى القاف ؛ لأن الأول حرف حلق . ويعللون امتناع الإدغام مع حروف الحلق ، بأنها قد بعدت مخرجاً ، فأصبح إدغامها فى غيرها صعباً ؛ لأن شرط الإدغام قرب المخرج لا بعده . ويستمر علماء التجويد فى إكمال صورة الإدغام الصغير من حيث الامتناع والجواز ... إلخ ، وذلك بصورة علمية دقيقة .

الثانى : الإدغام الكبير : وهو الذى تحرك فيه أول الصوتين : المدغم والمدغم فيه . ويقع فى المثلين ، وفى المتجانسين ، والمتقاربين .

فما يقع فى المثلين قد يكون فى كلمة ، وقد حصر علماء التجويد هذا النوع فى القرآن الكريم فى موضعين هما: «مناسككم» فى سورة البقرة، و«ماسلككم» فى سورة المدثر .

وقد يكون فى كلمتين : وقد حصره علماء التجويد فى سبعة عشر حرفاً فى القرآن الكريم هى :

الباء نحو : « لذهب بسمعهم » ، والتاء نحو : « الموت تحبسونهما » .

الثاء نحو : « حيث ثقفتموهم » . والحاء نحو : « النكاح حتى » .

الراء نحو : « شهر رمضان » ، والسين نحو : « وترى الناس سكارى » ،

العين نحو : « يشفع عنده » ، والغين نحو : « يبتغ غير الإسلام » .

الفاء نحو : « وما اختلف فيه » ، والقاف نحو : « فلما أفاق قال ... » .

الكاف نحو: «واذكر ربك كثيراً» ، واللام نحو : « لا قبل لهم » .

الميم نحو : « الرحيم مالك » ، والنون نحو : « وبنين نسارع لهم » .

الواو نحو : « وهو وليهم » ، والهاء نحو : « فيه هدى » .

الياء نحو : « أن يأتى يوم » .

والإدغام الكبير الذى يقع بين المتجانسين أو المتقاربين قد يكون فى كلمة، وذلك محصور فى القاف والكاف إذا تحرك ماقبل القاف، وتلا الكاف ميم الجمع، مثل : خلقكم ، رزقكم .

وقد يقع فى كلمتين ، وقد حصره العلماء فى ستة عشر حرفا هى : (ب . ت - ث - ج - ح - د - ذ - ر - س - ش - ض - ق - ك - ل - م - ن) . وقد حدد العلماء الحروف التى يدغم فيها كل واحد من هذه الحروف الستة عشر، بما تفيض به كتبهم .

ما حكم له بالإدغام :

وقد حكم علماء التجويد على أصوات كثيرة بالإدغام، منها :

١ — النون الساكنة والتنوين : فقد أجرى العلماء عملية استقراء وإحصاء واسعة ، فتعقبوا تجاور الحروف كلها لهذين الصوتين ، واستطاعوا أن يحكموا عليها بالإدغام إذا جاء بعدهما حرف من حروف « يرملون » فهنا لابد من تنفيذ ظاهرة الإدغام ، بمعنى أن النون الساكنة - وكذا التنوين - تتحول إلى مثل مابعدها من حروف « يرملون » . غير أنهم فرقوا بين هذا الإدغام الذى يقع مع « الراء ، واللام » وبين الإدغام مع الحروف الأربعة (يغمو) .

فقالوا : إن الإدغام بالنسبة للنون الساكنة والتنوين يكون إدغاماً بدون غنة ، وذلك مع اللام والراء . ويكون إدغاماً بغنة ، وذلك مع الياء والنون والميم والواو .

وهذا التقسيم دقيق جدا ، ذلك أن الإدغام مع اللام والراء تفنى فيه النون الساكنة ١٠٠ ٪ حيث تتحول إلى لام مع اللام ، وإلى راء مع الراء مثل « من لدنه » — « من ربكم » ، فالنون فى المثال الأول أبدلت لاماً ، ثم

أدغمت اللام فى اللام ، فصارت لاماً مشددة ، فلا أثر - حينئذ - للغنة ، ومن باب أولى للنون . ومن ثم ، سمى إدغاماً بدون غنة » .

أما الإدغام مع حروف ينمو ، فإن النون لا تفنى فناءا كاملا ، وإنما يذهب نصفها ٥٠ ٪ وهو المخرج ، ويبقى نصفها ٥٠ ٪ وهو الصفة أى الغنة .

ويلاحظ أن الصوت من أصوات « ينمو » عند تنفيذ الإدغام بغنة لا يبقى صوتاً مفردا كما لو كان بدون إدغام ، كما أنه لا يتحول إلى حرف مشدد كما رأينا مع اللام فى « من لدنه » أو الراء فى « من ربكم » .. وإنما نستطيع أن نقول : إنه أصبح صوتاً شبه مشدد ، والذى أوجد هذه الصفة فيه هو : التزامن فى النطق بين النون والصوت الذى بعدها من أصوات « ينمو » ، ففى أثناء خروج الهواء من الأنف — لتحقيق صفة النون وهى الغنة — تبدأ أعضاء النطق فى نطق الحرف التالى للنون ، فيحدث التزامن فى نطق صوتين ، فيظهر الصوت كأنه مشدد ، مثل : « من يهد الله فهو المهتد » - « من وال » - « من نار » - « من مال الله » ، ومن ثم سمى هذا الإدغام إدغاماً بغنة .

٢ — الميم الساكنة : من أحكام الميم الساكنة الإدغام أيضا ، وذلك أن علماء التجويد أحصوا الجوار الصوتى للميم الساكنة ، فوجدوا أنها تدغم إذا جاء بعدها ميم ، كما فى قوله تعالى : « خلق لكم ما فى الأرض » ، فقد اجتمع هنا مثلان ، الأول ساكن والثانى متحرك ، فيجب الإدغام .

٣ — المتماثلان : حكم علماء التجويد على الصوتين المتماثلين بالإدغام سواء أكان إدغاما صغيرا بأن يكون الأول ساكناً والثانى متحركا ، مثل : « اضرب بعصاك » ، أم كان إدغاماً كبيرا ، كما فى قوله تعالى : « نصيب برحمتنا » ، وهذا ماسبق توضيحه .

٤ — المتقاربان : إذا التقى صوتان متقاربان صفة أو مخرجاً ، فإن هذا الجوار الصوتى يسبب إدغام الأول فى الثانى ، مثل : « قد سمع » .

٥ ـ المتجانسان : إذا تجاور صوتان ، وكانا متحدين فى المخرج فقط ، فإن هذا السياق يسبب إدغام الأول فى الثانى ، مثل : « قالت طائفة » .

وهكذا نجد علماء التجويد قد وضعوا أيديهم على ظاهرة من الظواهر التى تنشأ بسبب الجوار الصوتى ، ألا وهى « الإدغام » .

ولا يخفى أن هناك الكثير من ظواهر السياق الصوتى لدى علماء التجويد القرآنى كالإخفاء ، والإظهار ، والإقلاب ، مما يتصل بالصوامت ، وكالمد والقصر مما يتصل بالحركات ، وهذه الظواهر تحتاج إلى معالجة فى ضوء علم الصوتيات الحديث ، حتى نستطيع أن نضع بين يدى القارىء الكريم صورة علمية مشرفة لأسلافنا الذى أبلوا فى سبيل خدمة القرآن الكريم بلاء حسناً .

وإلى الملتقى فى بحث تال لهذا ـ حتى يتصل العمل ، وتكمل الصورة ـ نتناول فيه بقية ظواهر السياق عند علماء التجويد .

والله نسأل أن يمدنا بعونه ، ويمن علينا بتأييده وحفظه ، إنه على مايشاء قدير ؟

من أهم المراجع

١ ـ النشر فى القراءات العشر :
لابن الجزرى (ت ٨٣٣) دار الكتب العلمية بيروت .

٢ ـ الحجة لأبى على الفارس :

٣ ـ حجة القراءات لأبى زرعة :
مؤسسة الرسالة ببيروت .

٤ ـ نهاية القول المفيد فى علم التجويد :
محمد مكى نصر ، ط الحلبى ١٣٤٩ هـ .

٥ ـ الخصائص :
لابن جنى ، ط دار الكتب المصرية .

٦ ـ العين :
للخليل بن أحمد ، تحقيق الدكتور عبد الله درويش .

٧ ـ سر صناعة الإعراب :
لابن جنى ، تحقيق السقا وآخرين .

رقم الايداع بدار الكتب ٦١٩٤ / ١٩٩٠